القرآن والمسلمون

للأستاذ الشيخ محمود شلتوت
وكيل كلية الشريعة

إن خير حديث يتحدث به المسلمون بعضهم إلى بعض في هذا الشهر الذي يذكرون فيه ميلاد نبيهم محمد صلى الله عليه وسلم، هو ما يتصل بهذه المعجزة الخالدة التي أظهرها الله على يد هذا النبي الكريم، وبها حول العالم من سبل الشر والشقاء، إلى سبل الخير والسعادة

وإن الحديث فيما يتصل بالقرآن الكريم لكثير النواحي، متشعب الأطراف. وقد رأينا أن يكون حديثنا في ناحية من هذه النواحي هي علاقة المسلمين بالقرآن في عصورهم المختلفة، وذلك ينتظم:

(١) القرآن والمسلمون في العهد الأول
(٢) القرآن والمسلمون في العصور التالية
(٣) القرآن والمسلمون في العهد الأخير

وقد رأينا تمهيداً لعرض الموضوع الذي نحاوله أن نقدم بين يديه ما يجلي لنا الغاية التي من أجلها نزل القرآن، والفكرة التي يعمل لإقرارها في هذا العالم.

مقدمة

١ — كان الناس قبل القرآن في عقائدهم وأعمالهم على طرفين متناقضين: إما الإفراط أو التفريط؛ وكلا الفريقين بعيد عن جادة الاعتدال. فبينما كنت ترى فريقاً عكف على المادية البحتة، وشغف بها حتى جرت منه مجرى الدم في العروق، وحرص على تنمية عواملها، وتوطيد وسائلها، وحرم نفسه تذوق اللذة الروحية، إذا بك ترى فريقاً آخر قد نزع إلى الطرف المقابل، ونسي حظه المقدر له في المادة بمقتضى خلقه وتكوينه، فتحكمت فيه تقاليد الروح المحضة، وأعرض عن الدنيا وما فيها، وحرم نفسه متاعها ومباهجها

هذان هما الفريقان المتقابلان يستظل أولهما بظل اليهودية أو الوثنية، ويستظل الآخر بظل المسيحية أو الصابئية أو نحو ذلك

ب — إن انقسام هاتين الفكرتين للعالم على هذا النحو، أو طغيان إحداهما على الأخرى، من شأنه أن يحول بين الناس وبين القيام بواجبهم الذي من أجله خلقوا، وجعلهم الله خلفاءه في أرضه: ذلك الواجب هو عمارة الكون والانتفاع بما خلق الله فيه من شيء، والسمو بالعقل الإنساني على وجه يسعد به الناس في معاشهم ومعادهم؛ ذلك الواجب هو الذي تضمنته الآية الكريمة في بيان حكمة هذا الخلق

« هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً. ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات وهو بكل شيء عليم. وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة. قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك؟ قال: إني أعلم ما لا تعلمون! »

ج — جاء الإسلام وهاتان الفكرتان تقتسمان العالم وتسيطران عليه. فحدد غاية الإنسان في الحياة وأرشده إلى مقوماتها الصحيحة، وأهاب به إلى الفكرتين جميعاً، وحثه على قصد الجادة والاعتدال، وطلب إليه أن يأخذ في كل ناحية بقسط ملائم حتى تتحقق له السعادة على أكمل وجوهها . . .

أوسع له في ضروب القول مستدلاً على عقم المادية البحتة بأنواع الاستدلال، وأخذ يصورها أمامه بأبشع الصور، واتجه به إلى كثير من مواطن الحياة، وحثه على استكمال حاجته منها؛ ونعى على الروحية المحضة، وجعلها من الأساليب التي تنافر الغاية من خلقه لعمارة الكون وخلافته عن رب العالمين

اقرأوا — إن شئتم — قوله تعالى في التنفير من المادية البحتة:

« من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون. أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون » « وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو، وللدار الآخرة خير للذين يتقون. أفلا تعقلون؟»

واقرأوا قوله تعالى في الحث على ترك الروحية المحضة:

« قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق؟ قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة » « ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها »

واقرأوا قوله تعالى في الحث على الأخذ بالنصيبين:

« وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة، ولا تنس نصيبك من الدنيا، وأحسن كما أحسن الله إليك، ولا تبغ الفساد في الأرض »

« فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون »

جاء القرآن لهـذا الغرض : مهمته أن يبلغ العقل البشرى رشده ، وأن ينتفع الناس بالصالح من المادة والمفيد من الروح

وقد اتخذ هذا الاعتدال نهجاً له فى إصلاح العقائد وتهذيب الأخلاق وترسيخ قواعد التنظيم الاجتماعى ، وصرح فى كثير من آياته بأنه يعمل على إخراج الناس من الظلمات إلى النور ، ويهديهم إلى الطريق الأقوم ، ويبشرهم بالحياة الطيبة إذا هم تمسكوا بمبادئه وعملوا بإرشاداته ، وحرصوا على تنفيذ أحكامه

واقتضت حكمة العليم الخبير أن يكون بعضه مفصلاً وبعضه مجملاً : يفصل ما لا تختلف فيه أغراض الإصلاح ، ولا تتغير فيه وجوهه بتغير الأزمان والأمكنة ، وذلك ما يرجع إلى العقائد والأخلاق ورسوم العبادات ، ويجمل ما تختلف أحكامه بحسب ما تقتضيه أحوال الزمن وتطورات الحياة واختلاف الأمكنة ، تاركا للعلماء تطبيق ذلك على الحوادث والواقعات الجزئية التى يجود بها الزمن

وذلك كله عملاً على سعادة البشر ، وإطلاقاً لسراح العقل ، وحثاً لأهل البصيرة على التمتع بلذات النظر والتنافس فى مجال الاجتهاد

عالج القرآن بذلك العلل النفسية والأمراض الخلقية ، وحل المشاكل الاجتماعية ، ورسم طريق الحياة الطيبة الصالحة فكان كما وصف نفسه :

« إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم »

« كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير »

« وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين »

« تبارك الذى نزّل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً »

القرآن والمسلمون فى العهد الأول :

على هـذا الأساس آمن الأوائل من المسلمين بالقرآن ، فوضعوه بالمحل الأول من مكانة التقديس والعناية ، وسلموا إليه نفوسهم ، وتركوه يتصرف فيها بالتزكية والتطهير والتعليم والحكم والسياسة وسائر شئونهم ، العامة والخاصة ، الداخلية والخارجية ، حتى اتسعت أمامهم مسالك الحياة وانفسحت رقعة المملكة الإسلامية طولاً وعرضاً ، فما احتاجوا وهم يقلبون القرآن بين أيديهم ، ويفهمون آياته الواضحة ، وإشاراته الواردة على سنن اللغة العربية القويم ، إلى قانون سياسى أو مدنى ، ولا إلى نظريات الآداب والأخلاق ، بل كانوا كلما تقدمت بهم الحياة ونظروا فى القرآن ، رأوا فيه حاجتهم ، واستفادوا منه أكبر ما تطمح إليه النفوس الوثابة المتطلعة إلى عز الدنيا ومجد الحياة !

حصروا نظرهم إلى القرآن فى الفهم والاتعاظ وتنفيذ الأوامر واجتناب النواهى ، وأخذوا ينشرون ما يفيضه عليهم من أصول التشريع وقوانين الأخلاق والاجتماع على سائر المسلمين فى جميع بقاع الأرض شرقاً وغرباً ، فوحد القرآن بينهم حول الغاية التى لأجلها نزل . وما كانوا ليتجهوا أو ليحاولوا أن يخرجوا بشىء من آى القرآن كلا أو بعضاً عن هذا النهج : نهج العمل ، وتهذيب الخلق ، وإصلاح العقيدة

ما فكروا يوماً فى أن القرآن يبرئ لهم مريضاً ، أو يرد عنهم غائلة عدو ، أو يكشف لهم عن معضلة كونية إلا عن طريق ما أمر به من اتخاذ الأسباب ، وقدح زناد العقل ، والسلوك فى الحياة على ما تقتضيه سنة الحياة .

بهذا سار المسلمون الأولون ، وعظم سلطانهم ، وتربت مهابتهم فى قلوب الأمم ، ودخل الناس فى دين الله أفواجاً .

وبهذا حافظوا على وحدتهم فلم يتفرقوا فى العقائد ، ولم تشتتهم الأهواء والمذاهب ، وسلم لهم دين الله وكتابه خالصين متينين لم تلعب بهما الشهوات ، ولم يتطرق إليهما عوامل الأحداث والابتداع

القرآن والمسلمون فى العهود التالية

مضى ذلك العهد ، وقد اتسمت بفضل القرآن وتأثيره فى النفوس رقعة الإسلام ، وامتد سلطانه ، ودخلته حضارات وثقافات وعناصر مختلفة وأمم متباينة ، فبدأت عوامل التفكك تتسرب إلى الوحدة الإسلامية

حدثت بدعة الفرق ، والتطاحن المذهبى ، والتناحن الطائفى ، وأخذ أرباب المذاهب وحاملو رايات الفرق المختلفة يتنافسون فى العصبيات المذهبية والسياسية ، وامتدت أيديهم إلى القرآن ، فأخذوا يوجهون العقول فى فهمه إلى وجهات تتفق وما يريدون

وبذلك تعددت وجهات النظر فى القرآن ، واختلفت مسالك الناس فى فهمه وتفسيره ، وظهرت فى أثناء ذلك ظاهرة خطيرة هى تفسير القرآن بالروايات الغريبة والإسرائيليات الموضوعة التى تلقفها الرواة من أهل الكتاب وجعلوها بياناً لمجمل القرآن وتفصيلاً لآياته ، ولم يروا بأساً من أن يضيفوا إليه خصائص موهومة فى شفاء الأمراض وقضاء الحاجات وتفريج الكربات

ومنهم من عنى بتنزيل القرآن على مذهبه أو عقيدته الخاصة ، وبذلك وُجدت محكات الفقهاء والمتكلمين وغلاة المتصوفة وغيرهم ممن يروجون لمذاهبهم ويستبيحون فى سبيل تأييدها والدعاية لها أن يقتحموا حمى القرآن ، فأصبحنا نرى من يؤول الآيات لتوافق مذهب فلان ، ومن يخرجها عن بيانها الواضح وغرضها المسوقة له لكيلا تصلح دليلاً لمذهب فلان ، وبهذا أصبح القرآن تابعاً بعد أن كان متبوعاً ، ومحكوماً عليه بعد أن كان حاكما

كانت هذه ثورة ، وثورة غير منظمة ، عقدت حول القرآن غباراً كثيفاً حجب عن العقول ما فيه من نور الإرشاد والهداية . وكان من سوء الحظ أن صادفت هذه الثورة عهد التدوين ، فحفظت ودونت كثير من الآراء الباطلة فى بطون الكتب ، وأخذت بحكم الأقدمية ومرور الزمن نوعاً من القداسة التى يخضع لها الناس ، فتلقاها المسلمون فى عصور الضعف الفكرى والانحلال السياسى كقضايا مسلمة وعقائد موروثة لا يسوغ لهم التحلل منها ولا الاعتداء عليها ولا التشكيك فيها

قيد هذا التراث العقول والأفكار بقيود جنت على الفكر الإسلامى فيما يختص بفهم القرآن ، والانتفاع بهداية القرآن ، فجمد الناس على تقليد هذه الكتب ، واتخذوها حكما بينهم ، واعتقدوا كل ما فيها من غير تمييز بين حق وباطل ونافع وضار ، واعتقدوا أنه لا يصح لمؤمن أن ينكر شيئاً منها ، وقالوا : هذا شىء درج عليه السابقون المتقدمون ، ودونوه فى كتبهم ، وشرحوا به كتاب الله ، وتلقته الأمة بالقبول ؛ وما كان لنا ، ولسنا بأعلم منهم بالدين ، ولا بأبعد نظراً فى فهم أساليب القرآن وتخريج الأحكام ، أن نحيد عما تلقيناه منهم قيد شعرة ، ولا أن نخالفه فى قليل ولا كثير

وبذلك أسلموا عقولهم إلى غيرهم ، وجنوا على أنفسهم بحرمانها لذة التفكير ، وجنوا على دينهم باعتقاد أن هذه الأوهام من الدين

وكما أفسدت عليهم هذه النزعة حياتهم الفكرية ، وصورت لهم دينهم بهذه الصورة المشوهة، جنت كذلك على حياتهم العملية فتركتهم يزهدون فى الدنيا ، ويكبلون الناس بما يفهمونه من معنى القضاء والقدر ، ويكلونهم إلى التوكل الجاف الذى لا يعتمد الأسباب ؛ وبذلك افتقر المسلمون والناس من حولهم أغنياء ، وضعفوا والناس من دونهم أقوياء ، وحيل بينهم وبين الأخذ بالأسباب على حين سخر الناس السماء والأرض والجو والماء !

« البقية فى العدد القادم »

محمود شلتوت

إدارة البلديات — مبان

تقبل العطاءات بادارة البلديات (بوستة قصر الدوبارة) لغاية ظهر ١٠ مايو سنة ١٩٤١ عن عملية إنشاء دار لبلدية زفتى وتطلب الشروط من الادارة نظير ٥٠٠ ر ١ (مليم جنيه)

٨٠٢٤

لا تركام بعد الآن !
أحدث الاكتشافات العلمية فى صحة الفم !
السويدى عجينة للأسنان :
يودكاليكلور
أطلب النشرة العلمية الخاصة من : جلاتهورمان صندوق بوستة ٢١٠٥ مصر
(س . ت ٥٢٢٧)